

تقديم

هذا كتاب علم وتعليم ، أراد به مؤلفه إلى أن يعرض في وضوح وجلاء ، أزمة الضمير الأوربي في عصر من أخطر عصور الانتقال . وهو العصر الذي يختم طور النهضة الأوربية الحديثة ، ويبدأ في الاعداد لطور الثورة الفرنسية التي لم تغير حياة أوربا وحدها ، وإنما غيرت معها حياة الانسانية كلها . والناس جميعاً يعلمون أن النهضة الأوربية الحديثة . قد أخرجت أوربا من حياة القرون الوسطى ، إلى نوع جديد من الحياة ، لا يستأثر الدين المسيحي بالسيطرة عليه ، وإنما تشارك في تكوينه عناصر أخرى ، يكون لها في حياة الناس أبعاد الأثر ؛ بل يكون لها في الدين المسيحي نفسه أبعاد الأثر . فالرجوع إلى أصول الثقافة اليونانية واللاتينية ، واستكشاف أقطار من الأرض لم يكن العالم المتحضر يعرفها ؛ كل ذلك عرض العقل الأوربي لحركات عنيفة ، لم تلبث أن أحدثت آثارها ، فشعرت الضمائر بالحاجة إلى الحرية ، وطمعت العقول في تحقيق هذه الحرية وجاهدت في سبيلها جهاداً عنيفاً ؛ ونظرت الكاثوليكية فإذا هي وسط بين طرفين متباعدين أحدهما يطمح إلى الحرية ويحقق منها قدرًا لا بأس به ، وهو الإصلاح الديني الذي يتكشف عن البروتستنتية . والآخر لا يطمح ، وإنما يجمع حتى يتجاوز بحريته حدود الدين كلها . وإذا شيء من الوثنية القديمة يعود إلى الحياة في كثير من القلوب والضمائر ، ويصنع كثيراً من البيئات بشيء من الشك والاباحة والاستخفاف ، وقد تغيرت حياة الناس المادية بفضل استكشاف ما استكشف من أقطار الأرض ، فأتيح لهم من الثراء وأسباب الدعة ما كان ممنوعاً عنهم ، أو مقتراً عليهم فيه . ولا يكاد القرن السادس عشر يتقدم شيئاً حتى تكون الحياة الأوربية قد تغيرت تغيراً تاماً ، فظهرت فيها نزعات في الأدب والفن ، وفي العلم والفلسفة ، وفي السيرة الفردية والاجتماعية ، لم

تقديم

تكن موجودة من قبل . فاذا أشرف هذا القرن على آخره ، كان هذا النظام الجديد قد استقر واطمأن ، وألفه الناس وأصبحت له أصوله الثابتة وقواعده المقررة . وأخذ ينتج في الأدب والفلسفة ، تلك الآثار الكلاسيكية الخالدة . ولكن العقل ماض في طريقه إلى البحث والدرس والاستقصاء والابتكار . وإذا مضى العقل في هذه الطريق ، فلا سبيل إلى أن يقف ، ولا إلى أن يجد سلطانه على الحياة مهما تختلف فروعها ؛ وما هي إلا أن يأخذ المثقفون في عرض القيم المقررة للبحث والنقد ، كما عرضت للبحث والنقد في أوائل عصر النهضة الحديثة . وإذا أزمة تطرأ على التشكيك والشعور . وعلى تقدير الأشياء والحكم عليها ، وعلى المقاييس التي تقاس بها القيم الفنية والأدبية والدينية . وإذا صراع يثار بين القديم والجديد . وليس القديم هو الثقافة اللاتينية اليونانية فحسب ، وإنما هو هذه الثقافة وما نشأ عنها من ثقافة أوربية تقليدية . بل ليس القديم هو الثقافة اللاتينية اليونانية وما نشأ عنها من الثقافة الحديثة ، وإنما هو هذا ومعه الحياة الانسانية كلها بما فيها من نظم السياسة والادارة ، ومن أصول الأخلاق والاجتماع . كل شيء موضوع للشك . وكل شيء عرضة للنقد ، وكل شيء صالح للبحث والدرس ، وكل شيء قابل للتغيير والتبديل .

وهذه الأزمة هي التي اتخذها الأستاذ بول هازار ، موضوعاً لكتابه هذا الرائع الرفيع . فهو يفتتح من الحياة الأوربية ثلث قرون من أواخر القرن اناسابع عشر إلى أوائل القرن الثامن عشر ، ويتخذ حياة أوربا العقلية في هذه القطعة الصغيرة من الزمن موضوعاً لبحثه ، لا يدرسها في فرنسا وحدها ، وإنما يدرسها في أوربا بأكملها ، مستقصياً مستقرئاً ، موازنأً معارضاً ، مستنبطاً بعد هذا كله لما يصل إليه من الاحكام ، عارضاً عليك في أثناء هذا كله ، لمصوبه التي اعتمده عليها ومصادره التي رجع إليها .

ومن أجل هذا قلت إن هذا الكتاب ، كتاب علم وتعليم ، تقرأه فتظهر بفضل قراءته على الحياة الأدبية ، بل على الحياة العقلية كلها في أوربا كلها ، وهو من هذه الناحية كتاب علم ، لا أعرف له نظيراً فيما قصد إليه من البحث والدرس ، ومن النقد والتحليل . وهو من هذه الناحية أيضاً كتاب ينتفع به المثقفون جميعاً ، مهما تكن ثقافتهم ، ومهما يكن نشاطهم في هذا الفرع

تقديم

أو ذاك من فروع الحياة . ولكن للكتاب ناحية أخرى ، لعلها أن تكون أعظم خطراً من هذه الناحية ، فهو كتاب تعليم وتوجيه ورسم للمناهج البحث والاستقصاء . يقرأه المتخصصون في تاريخ الحياة العقلية ، فيتعلمون منه كيف يتأق الباحث هذا اللون من ألوان التاريخ ، ويتعلمون منه أن الحياة العقلية لا تؤرخ بالقرون ، ولا بالأعوام ، ولا بما يكون من سقوط دولة وقيام أخرى ، ولا بما يكون من شهبوب الحروب حين تشب ، ومن عقد الصلح حين يعقد . وإنما هذه كلها وأشياء أخرى غيرها ، لها آثارها المختلفة في حياة العقل والشعور ، دون أن تكون هي المقياس الذي تقسم به ، وتقاس إليه حياة العقل والشعور .

فالذين يؤرخون لأدب أمة من الأمم في قرن من القرون ، يتجاوزون فيما يحددون لبجهم من هذه العصور . فالقرن السابع عشر الفرنسي مثلاً ، لم يبتدئ بالضبط سنة ستمائة وألف حين يقاس إلى الحياة العقلية ، وإنما ابتداء قبل هذه السنة بوقت يقصر أو يطول ، لا سبيل إلى تحديده الدقيق ، وإنما يدل عليه دلالة مقاربة بظهور الأصول الثابتة ، والقواعد المقررة للأدب والفن . وهذا القرن لا ينتهى سنة سبعمائة وألف بالضبط ، وإنما ينتهى قبل ذلك بوقت لا سبيل إلى تحديده تحديداً دقيقاً بل يدل عليه دلالة مقاربة بظهور الشك في الأصول الثابتة ، وقواعد المقررة للأدب والفن . وقل مثل هذا بالمقياس إلى الآداب الأخرى مهما تكن ، فللحياة العقلية خصائصها وظواهرها التي ليست هي موقوفة على ما ألف الناس أن يتخذوه حدوداً للتاريخ من الخطوب والأحداث .

وللكتاب ناحية ثالثة ليست أقل خطراً من هاتين الناحيتين . فهو نموذج رائع للأدب المقارن ، ودراسة الأدب المقارن بدع جديد عرفته أوروبا في أواخر القرن الماضي ، وثققت به خطوات واسعة قيمة ، وأخذنا نحن نعرفه منذ أعوام ، أو قل أخذنا نحن نسمع به ولا يكاد أكثرنا يحقق معناه فضلاً عن أن ندرسه ونعمقه وننتج فيه إنتاجاً قيماً على شدة حاجتنا إليه ، لتعقد الصلات بين أدبنا العربي وبين الآداب الأجنبية المختلفة قديماً وحديثاً .

فهذا الكتاب دروس رائعة في الأدب القرن ، يعلم المتخصصين في التاريخ الأدبي كيف يتبعون الظاهرة الأدبية المعينة في الشعوب المختلفة ، بن في

البيئات المختلفة من الشعب الواحد ، وكيف يشخصون هذه الظاهرة تشخيصاً دقيقاً ، وكيف يقيسونها إلى أمثلها في الشعوب المتباعدة والبيئات المتباينة وكيف يستخلصون من هذا القياس أحكاماً أدبية لها دلالتها الخطيرة على ما يكون بين الشعوب من قباعد وتقارب ، ومن تشابه وتنافر في الطبيعة والمزاج . فالذين يريدون أن يعلموا يجدون في هذا الكتاب علماً كثيراً غزيراً ممتازاً . والذين يريدون أن يتعلموا منهج البحث في التاريخ الأدبي ، والذين يريدون أن يعرفوا طرائق الدرس للأدب المقارن ، يجدون في هذا الكتاب أربع تعلم وأروع توجيه .

ويعجبني أن يقرأ الناس وأن يفهموا ما يقرأون في هذه الظروف التي تحيط بنا ، والتي تصد الناس عن القراءة ، ولا سيما القراءة القيمة ، وتعجلهم عن الفهم ولا سيما الفهم النافذ العميق ، ويعجبني إذا قرأ الناس وفهموا واستمتعوا بالقراءة والفهم ، أن تكون قلوبهم كريمة ونفوسهم سخية ، وأن يدفعهم ذلك إلى أن يشركوا الناس معهم فيما وجدوا من لذة المعرفة ومتعة الفهم والدوق .

من أجل هذا لم أكد أصدق حين أنبئت بأن أدبيين مصريين ، قد قرعوا في هذه الأيام لقراءة هذا الكتاب وفهمه واساغته . فلما بلغنا من ذلك ما أرادنا كرها أن يستأنروا بالمتعة من دون قواء العربية ، فتكفأ أعنف الجهد وأعظم المشقة لنقله إلى لغتنا العربية . لم أكد أصدق ذلك حين أنبئت به . فنحن نحيا في هذه الأيام حياة قواسمها الكسل والأثرة والانصراف عن جد الأمر إلى سخره ، وعن عسير الأمر إلى يسيره . ونكني رأيت الكتاب بين يدي مترجماً حسن الترجمة ، فاستبشرت واطمأننت إلى حسن الظن بالمواطنين وصدق الرأي فيهم ، وإلى الثقة التي لم تفارقني قط بأن الخطوب قد تلم ، وبأن النوائب قد تنوب ، وبأن الأحداث قد ترهق الناس من أسرهم عسراً ، ولكن جذوة الثقافة انعانية للمعرفة الرفيعة ستظل دائماً حية قوية ، تشيع في القلوب وانتهوس والصفوف حرارة ونوراً . وأتو رجل شره إلى العلم مسرف في الطموح ؛ لا أعرف للطمع حداً حين يتصل الأمر بالثقافة والمعرفة ، فلم أكد أحمد للأدبيين الكريمين ما بذلوا من جهد ومال في ترجمة هذا الكتاب ونشره ، حتى أغريتهما بترجمة كتاب آخر للمؤلف نفسه موضوعه التفكير الأوروبي في

تقديم

ص

الثامن عشر ، وأعترف بأنني لم أحتج ، معهما إلى شديد إغراء . فقد
أبانا للدعوة الشريفة ، وأقبلنا على العمل بشغوفين به ، محتفلين له ،
بمستعدين أحسن استعداد لاحتفال بنا سيكلفهما من مشقة وعناء .
فلهما شكرى خالصاً . وعليهما ثنائى صادقاً ، وما أشك في أنهما سيظفران
من كل قارئ بمثل ذلك الشكر وهذا الشفاء .

ط حسين

باللتنافس ! يا للانتقال الفجائي ! تدرج السلطات والطبقات ، طاعة القوانين ، النظام الذى تتكفل السلطات بتحقيقه ، المذاهب التى تنظم الحياة بحزم : ذلك ما كان يحبه رجال القرن السابع عشر . الاجبار ، السلطة ، المذاهب : ذلك ما كان يبغضه رجال القرن الثامن عشر ، الذين خلفوهم مباشرة . الأولون مسيحيون ، والأخرون خصوم المسيحية ؛ الأولون يؤمنون بالحق الالهى ، بينما الآخرون يؤمنون بالحق الطبيعى ؛ الأولون يستطيعون العيش فى مجتمع ينقسم إلى طبقات غير متساوية ، والآخرون لا يحلمون إلا بالمساواة . إن الأبناء يتندرون على الآباء ، ظانين أنهم سوف ينهضون باصلاح عالم ، لا يتوقف إصلاحه إلا على مجيئهم : ولكن الغليان الذى يثير الأجيال المتتابة لا يكفى لتفسير تغير سريع قطعى مثل هذا التغير . كانت أغلبية الفرنسيين تفكر كما فكر بوسويه ؛ وبغته ، فكر الفرلسيون كما فكر فولتير : إنها لشورة .

ولكى نعرف كيف وقعت هذه الثورة ، قمنا بالبحث فى أراض غير مطروقة . فقد درسنا القرن السابع عشر طويلا فيما سبق ، واليوم نعكف على دراسة القرن الثامن عشر . وفى حدودهما الفاصلة تمتد منطقة وعرة ، سهمة ، نأسل أن نجد فيها بعض الكشف والمغامرة . لقد جسنا خلالها ، واخترنا لتحديداتها تاريخين غير قطعيين : من جهة حول عام ١٦٨٠ ، ومن جهة أخرى ١٧١٥ .

ولقد قابلنا سبينوزا ، الذى بدأ نفوذه يشتم فيها ، ومالبرانش ، وفونتنل ، ولوك ، ولبنتز ، وبوسويه ، وفينلون ، وبابل ، إذا اقتصرنا على ذكر الأعلام ، ودون تحدث عن ديكارت الذى لا يزال يسكنها . إن أبطال الفكر هؤلاء ، كانوا عاكفين — كل حسب طبعه وعبقريته — على البحث فى المسائل التى ما برحت تشغل أذهان الناس منذ الأزل ، كما لو كانت مسائل جديدة ؛ مثلا : وجود

مقدمة

الله وطبيعته ، والكائن والمظاهر ، الخير والشر ، الحرية والقدرية ، حقوق السلطان ، تكون الحالة الاجتماعية ، والمسائل الحيوية كافة . فبماذا ينبغي أن نعتقد ؟ وكيف ينبغي أن نسير ؟ وكان هناك سؤال ، سؤال الملوك حسب الناس أنه أصبح أمراً مفروغاً منه ، يعود دائماً من جديد : ما هي الحقيقة ؟ Quid est Veritas ؟

في الظاهر كان العصر الكبير يمتد في كل عظمته وجلاله ، وما كان على المفكرين والمؤلفين إلا أن يقدوا الروائع الأديبة التي ظهرت بوفرة من قريب . واستعرت بينهم المناقشة ، فهذا يؤلف التأساة على متوال راسين ، وذلك يؤلف الملهاة على متوال مولير ، وغيرهما يؤلف القصص على متوال لافونتين ؛ وإنشد انتقاد الوجهة الأخلاقية في الملاحم الشعرية ، والتوسل بأسرار المسيحية ؛ ولم يكفوا أيداً عن امتداح قاعدة الوحدات الثلاث (١) ؛ فخر الفن . لكن في البحث اللاهوتي السياسي *Tractatus theologico-politicus* وفي « علم الأخلاق » *Ethique* وفي « مقال عن الإدراك الانساني » *Essay concerning human understanding* وفي « تاريخ تبدل الكنائس البروتستانتية » *Histoire des variations des églises protestantes* وفي « القاسوس التاريخي والنقدي » *Dictionnaire historique et critique* وفي « جواب على أسئلة قروي » *Réponse aux questions d'un Provincial* استعر جدال لم تعد هذه المشاغل التافهة تبدو بآرائه الإكلابية أطلاقاً أو عجزاً ضعاف . فالأمر يتعلق بمعرفة ما إذا كان الناس ما يرحوا مؤمنين ، أم فقدوا الإيمان ؛ ما إذا كانوا يدعون للتكاليد أم يتمرّدون عليها ، ما إذا كانت الانسانية ستواصل السير في طريقها ، وثقة بقادتها أم تختار رؤساء جدداً ليقودوها نحو جنات جديدة . كان العقليون والدينيون كما يقول بايل ، يتنازعون الأرواح ويتواجهون في معركة شهدتها أوروبا الفكرة بأسرها . جعل المهاجمون ينتصرون شيئاً فشيئاً . لم يعد الاتحاد منفرداً مستحقياً ، بل أخذ يكتسب الأشياء حتى أصبح فخوراً متنطرساً . ولم يعد الإنكار مستحقياً ، بل انكشف وانتشر . ولم يعد العقل حكمة متوازنة ، بل أصبح جرأة انتقادية . وأصبحت المعارف المألوفة ، مثل الارتضاء الشامل الذي يثبت وجود الله ،

والإيمان بالمعجزات موضع شك وإنكار . لقد نفى الناس ما هو إلهي إلى طبقات سماوية غير معروفة ، يستحيل إدراكها ؛ أصبح الإنسان ، الإنسان وحده ، مقياس كل الأسور ؛ إذ كان بذاته علة بدئه ونهايته . ظل رعاة الشعوب مدة طويلة يملكون السلطة بين أيديهم ، واعددين باستتباب الطبيعة ، والعدل ، والمحبة الأخوية على وجه الأرض ؛ لكنهم لم ينفذوا وعدهم هذا ، بل انهزموا في المعركة الكبرى ، المعركة التي كانت الحقيقة والسعادة جائزتهما ؛ إذن كان ينبغي أن يفسحوا . كان ينبغي أن يطردوا الناس ، إذا لم يقبلوا الانسحاب مختارين . فكر الناس أنه يجب تدمير البناء القديم ، الذي عجز عن حماية الأسرة البشرية الكبرى ، وهكذا أصبحت المهمة الأولى عملاً تدميراً . وكانت المهمة الثانية عملاً إنشائياً من جديد ، وتجهيزاً لأسس المجتمع المستقبل . واقتضت الضرورة الملحة بناء فلسفة — لكيلا يقع الناس في الشك ، نذير الغناء — فلسفة تترك الأوهام الميتافيزيقية الخادعة ، وتدرس الظواهر التي يمكن أن تتوصل إليها أيادينا الضعيفة ، والتي ينبغي أن نقنع بها . اقتضى الأمر إقامة سياسة دون حق إلهي ، ودين بلا أسرار ، وأخلاق بغير مذاهب . اقتضى قسر العلم على ألا يكون تسلية ذهنية ، بل قوة قادرة على قهر الطبيعة . خيل إلى الناس أنه لا شك في وصولهم — بفضل العلم — إلى السعادة ، وأن الإنسان قد ينظم هذا العالم المهزوم في سبيل راحته ، ويحمده ، ورفاهة مستقبله .

ولن يعيننا أن نرى في هذه الصورة ، روح القرن الثامن عشر . ولقد أردنا ، على التحقيق ، أن نبين أن صفاته الأساسية هذه ، إنما ظهرت في وقت أقدم جداً مما يتصوره الناس عادة ؛ وأن تكوينها قد اكتمل في عهد كان لويس الرابع عشر لا يزال يتمتع فيه بكل عظمتها الساطعة ، وأن كل الأفكار التي كانت تبدو ثورية نحو عام ١٧٦٠ أو حتى عام ١٧٨٩ ، إنما كانت في الواقع قد أفصح عنها من قديم ، نحو عام ١٦٨٠ . وقتئذ وقعت أزمة في الضمير الأوروبي ؛ وفيما بين « النهضة » — التي أنشأتها — والثورة الفرنسية التي أعقبتها ، لا توجد أزمة أهم منها في تاريخ الأفكار . لقد حاول « الفلاسفة » الجدد أن يبدلوا مدنية تستند على فكرة الواجب : الواجبات نحو الله ، والواجبات حيال الملك ، — بمدنية تقوم على فكرة الحق ؛ حقوق الضمير الفردي ، حقوق النقد ، حقوق العقل ، حقوق الإنسان والمواطن .

خمس وثلاثين عاماً من الحياة الفكرية لأوروبا ، كان من الحال أن نعددها في الزمن دون حسابان للستين التي تلت هذه الحقبة على الأخص ، بل التي سبقها كذلك — ودون حسابان لتلك المحاكم التي استدعت الإنسان نفسه ، لتستجوبه عما إذا كان قد ولد بريئاً أو مذنباً ، وعما إذا كان يؤمن بالخاضر أو بالأبدية ، — ودون حسابان لتلك الأفكار الحية الخالدة ذات القوة الهجومية أو الدفاعية ، التي بلغ من شدتها أن تأثير ذلك الماضي علينا لم ينقطع حتى الآن ، وأننا لا نزال نواصل ، في المسائل الدينية ، والفلسفية ، والسياسية والاجتماعية ، تلك المعارك الكبيرة الحامية التي لم يخمد لها بعد أوار — ودون حسابان للمؤلفات الضخمة التي كتبها في سخاء غريب ، أناس لم يهتموا بكمال الشكل اهتمامهم بوفرة البراهين وفعاليتها — دون حسابان للمؤلفات الغاسضة ، اللاهوتية والفلسفية — ثم تعدد الصلات بين البلد والبلد ؛ سريان الأفكار ، والعدوى والتأثير ، وغرائب الأحداث التي يصعب تفسيرها في بيئتها المحلية ، ويقتضى الأمر زجها في المحيط الأوربي لكي يسهل تفهمها ، والتوجيهات التي ينبغي ، ويشق التماسها في هذه البلاد الجبلية الوعرة ، والفواصل الجبلية والطرق والدروب ؛ والشخصيات التي ينبغي أن ترسم ، والسيم التي ينبغي أن نفهمها على حقيقتها ، في غضبها أو في ابتهاجها : ما من شك في أن هذا مشروع عسير التحقيق . ونحن لا نستطيع لأنفسنا عذراً في محاولتنا التعرض لهذا المشروع . لأننا لا نجهل ما سيتبقى وراءنا من عمل ، ولا نجهل أن معرفة الشجرة تقتضى دراسة فروعها وجذورها أتم دراسة — ولكننا نعتقد أنه من المفيد أحياناً ، أن يشق المرء درياً مؤقتاً في الغابات الكثيفة (١) .



هناك أزيان شاعرية : يلذ للمرء في تناولها بالدراسة ، أن ينتصت إلى نغمها المنسجم ، وأن يستروح غيرها الفواح ، وأن يستسلم لموسيقاها الحانية ، تحمله

(١) لقد نشرنا مقتطفات مختلفة من هذا الكتاب في أعداد ١٥ أغسطس ، ١٥ ، ١ سبتمبر سنة ١٩٣٢ من مجلة *Revue des deux mondes* وفي عددي أكتوبر وديسمبر ١٩٣٢ من مجلة *Revue de littérature comparée* وفي عددي ٢١ أكتوبر ، ٢٥ نوفمبر ١٩٣٣ من مجلة *L'Europe centrale* وسيجدها القارئ هنا معدلة بعض التعديل .

مقدمة

إلى آفاق يعجز عن تصويرها اللسان : حيث لا تعود الدنيا إلا أنشودة عذبة .
والزمن الذى ندرسه ليس من هذه الأزمان ؛ فقد جهل الجرس والايقاع ،
وفسر معنى الشعر تنسيراً عكسياً ، ولم يشعر بقوة ما فيه من سحر . ولكن القيم
التخيلية والحساسة لم تتوار على حين غرة ، ولم يكف الناس عن الاستسلام
للهولم وأهوائهم فجأة دون تمهيد ؛ فقد سجلنا ، على النقيض ، استمرار حياة
الأشكال والألوان ، ومعارضة القلب ، بجانب عمل العقل الصافى . فقيام
الخشوعية piétisme هنا ، والركونية quiétisme هناك ، قد كشف لنا عن
الأماني والرغبات التى تقيش فى الأرواح القلقة ، التى لم يقنعها العقل ، بل كانت
تبحث عن إله للمحبة . بيد أن هذه الروحانية نفسها قد ساهمت فى أزمة الضمير
التي يتميز بها هذا العصر . فانها فضت التحالف بين الدين والسلطة ، وبافلاتها
من رقابة الكنائس الأرثوذكسية ، وبنظرتها إلى الإيمان كنفحة فردية ،
اختيارية وطبيعية ؛ وبتقويضها دعائم النظام القائم ، قد قامت من جهتها بدور
عنصر مجدد : وبالمثل فقد أدخل على المجتمع إذذاك بذرة من الفوضى ، بمواجهة
أخطاء المدنية وجرائمها ، بفضيلة الرجل الهمجي البدائية .

بيد أن هذه السنين الشاقة ، الدسمة ، الحافلة بالجدال وبالقتال ، الزاخرة
بالأفكار ، لها بالرغم من ذلك جمالها الخاص . وإذا نحن تتبعنا هذه الحركات
الواسعة النطاق ، وشهدنا هذه الكتل من الأفكار تتفرق ثم تتجمع من جديد
طبقاً لقوانين أخرى وأصول مستحدثة ، وإذا رأينا إخواننا من بنى الإنسان
يتلمسون فى شجاعة سبيلهم نحو المصير المجهول ، دون أن تثبط لهم همة أو
يستسلموا لعائق أو غمة ، شعرنا بما شعروا به من انفعال . وإن فى عنادهم
واستبسالهم لشيئاً من الجلال ؛ وإذا كان الشئ الذى يميز أوروبا — كما سنيين
فيما بعد — هو عدم قناعتها أبداً ، وتجديد بحثها عن الحقيقة والسعادة ، فإن فى هذا
المجهود لمحة من الجمال لا تخلو من مسحة من الألم . وليس هذا بكل شئ .
فبدراسة نشأة الأفكار ، أو على الأقل ما انتابها من تبدل ، وبمتابعتها على
طول طريقها ، فى بدايتها الضعيفة ، وفى طريقة تدعيمها وتجربتها ؛ فى تقديسها وفى
انتصاراتها المتتابة حتى ظفرها النهائى — نصل إلى هذا الاقتناع العميق الوثيق ،
وهو أن ما ينظم الحياة ويوجهها ليس هو القوى المادية بل هو القوى الفكرية
والأخلاقية .